مسرحية رحلة حنظلة من الغفلة إلى الشكّ والمعرفة

وهي كتابة جديدة لنصّ: " كيف تحوّل السيد موكينبوت من آلامه" **لبيتر فايس** (1916 – 1982)، صادرة عن دار الآداب في بيروت، عام 1977، ورحلة حنظلة **مسرحية تجريبية** هدفها سياسي وتعليمي وتحريضي، استخدم ونوس فيها الأساليب والتقنيات الفنية التي من شأنها أن تقرّب النص أو العرض من المتلقي، وتعلّمه. فاعتمدت على تقنيات **المسرح الملحمي** وتجلّى ذلك في استخدامه لأسلوب **السرد** من خلال تقديم حرفوش الراوي وتوجيهه لأحداث المسرحية المبنية على شكل **لوحات تمثيلية** متتالية تكثّف حالة البؤس والمعاناة اللذين حلّا **بحنظلة**، كما نجح في تقنية **التوجّه للجمهور**، بغية **كسر الإيهام** لدى المتلقي ودفعه للتفكير بواقعه ومصيره مع أبناء الشعب المقهورين، وأيضاً نجح في استخدامه لغة حوار متداولة كالأمثال الشعبية وأحاديث الناس اليومية ومنح الشخوص أنماطاً كاريكاتيرية، ولكن ماذا عن موضوعاتها؟

الجانب السياسي في المسرحية، ومسؤولية سلطة النظام الحاكم في نشر الفساد والقهر والجهل والفقر:

الصراع الرئيسي في أحداث المسرحية بين المقهورين والمهمّشين من جهة، والسلطة السياسية بكلّ مكوناتها من جهة أخرى، والملاحَظة الأولى هي حضور واسع لممثلي السلطة في سياق **أحداث** المسرحية، وتبدو فعالياتهم أكبر بكثير من فعالية ممثلي الشعب المهمّشين. ولذلك فمسرحية ونوس هذه:

"تتوجّه إلى الطبقات الشعبية بغية توعيتها سياسياً وتحريضها على الخروج من سلبيتها للانخراط في عملية التغيير" [1]

منذ المشهد الأول يضعنا ونوس في أجواء غلبة السلطة متمثلة بالشرطي ومعتقلاتها على الشعب ممثلاً بحنظلة المغفّل رمز الفئات المقهورة، فالقيد جاهز في كل لحظة، وهاهو الشرطي يقيد حنظلة ويدخله السجن.[2] حنظلة الذي يتجنب مشاركة الناس همومهم، وينشد السترة بعيداً عن أيّ فعالية اجتماعية، متزوج بلا ضنى، ويقطن في حيّ الدرويشية، مبدؤه في الحياة:"امش الحيط الحيط وقل يارب السترة" و"الطاقة اللي بيجيك منها ريح سدّها واستريح"[3] كلّ ذلك لم يمنع عنه إيذاء السلطة الحاكمة عند مروره في شارع خلفيّ يخصّها.

إنّ آلام حنظلة التي سنتابعها، وهو رهن الغفلة والتطنيش عمّا يحيط به ستجعلنا ملومين له، لاشفوقين، مسعفين له بالمعرفة، لا بالعطف والحنان لأنّ:

"أن يكون المرء أعمى هذا شيء، وأن يكون له عينان سليمتان ولا يبصر فهذا شيء آخر"[4]

منذ المشهد الأول يؤكد ونوس على أحوال القهر المهيمن، فيقدّم الشرطي والحارس في سجن السلطة المودَع فيه حنظلة كنموذجٍ للقمع والتسلط والفساد، حيث تكشف **المسرحية** للجمهور عن أشدّ الأساليب وحشية جسدياً ونفسياً بالرغم من توسلات حنظلة المغفّل وإبلاغه لهم أنّه برئ وأنّه ضحية خطأ رهيب، وهو مستقيم في حياته ويقول للشرطي: "أطيع كلّ ما تأمر به الحكومة " [5] إلّا أن الشرطي يردّ عليه:"مادمت في السجن فأنت مذنب، هذا هو نظامنا،" لكنك لا تفهم إلّا بالسوط" [6]

ثمّ يعرف الجمهور أن الشرطي ابتزّ حنظلة، وحصل منه على رشوة مالية هي كلّ ما ادّخره في حياته أثناء عمله عدّاد فراطة في بنك الازدهار. وكما قال الشرطي فإن هذا المبلغ سيوزع على الجميع، طبعاً قصد الفاسدين، وأن خروج حنظلة يستدعي البحث عن مشبوه آخر يحلّ محلّه لأنّ نظامهم كما قال الشّرطي يقوم على أسس منها:"في أنظمتنا لا يجوز أن تكون في السجون أماكن شاغرة، شعارنا اعتقل الشبهة ولا تواجه فتنة" [7] ثم أفرجوا عن حنظلة بعد أن أفرغوا كلّ النقود التي وجدوها في محفظته. تركوه بحالة مزرية، فحزامه مقطّع من كثرة ما ضربه به الحرّاس، والبنطال واسعٌ جداً بسبب الهزال الذي أصابه كما يصيب كل المعتقلين في سجون السلطة، وحذاؤه ضخم لا يتمكن من انتعاله فيتأبطّه.

يندفع حنظلة خارج السجن ولكن إلى أين؟ أولاً إلى الشارع حيث يلتقي مع قرينه، الصوت الخفي، الصوت المقموع جوّاته، الصوت البعيد عنه، الصوت الذي يناديه من أعماق ذاته، الصوت الذي يحتاج إلى تدريب وتعليم طويلين ليتمكن من الوصول إليه وإعلائه بغية وعيّ شرطه الإنساني، هذا الصوت يمثّله الراوي حرفوش.

يبدأ حنظلة برواية مأساته، ولكن حرفوش يهمله ويتجنبه ثمّ يغمز من سلوكه المهين بحقّ نفسه، والذي إذا استمر على هذه الحالة المزرية فإنّه، ليس فقط، لن يتمكن من ارتداء ملابسه، وإنما كما قال له حرفوش: " ... والآن إمّا أن تزحف على مؤخرتك، أو تعرضها للمارة" [8] ولكن حنظلة يلّحّ على إعلان براءته و يقول:"إني ضحية ظلم لا مثيل له" [9] فيردّ عليه قرينه حرفوش:"الجلّاد يعرف دائماً ضحيته، ولكن الضحية لا تعرف دائماً الجلّاد "[10]

ثمّ يصل حنظلة صاحب مبدأ" ابعد عن الشر وغنّ له" إلى بيته وبدلاً أن يستقبله حضن زوجته الدافيء كما كان يأمل، استقبلته مصيبة جديدة فتجسّد له نقيض مبدئه بمبدأ آخر هو:" اللي من إيدو الله يزيدو". يلتقي بزوجته في غرفتهما التي اعتاد تقاسم الفراش معها، إنما ليست وحدها بل برفقة عشيق لها، ولكن حنظلة يستمر بسلبيته ويظهر المزيد من الغفلة والضعف أمام

ما تمارسه زوجته وعشيقها أمام ناظريه، ثم لاتلبث أن تطرده من بيته وتحتفظ بالعشيق، وهاهي تقول له:" اسمعها، وافهمها، العصمة بيدي، والبيت باسمي، مسحتك من حياتي، وسحنتك لا تذكرني إلّا بالفضلات، في خزانتي كلب غضوب وأنيابه كالمفاصل. إذا لم تتقلع في الحال، سأجعله يطردك بعد أن يمزق إليتيك " [11] ولعل هذا الكلب العضوض هو رمز شركائها في الحكومة كما سيتبين عندما يتعرّف حنظلة على أعضائها، فيما بعد، في سياق أحداث المسرحية. أمّا حرفوش صوت حنظلة الداخلي، والقرين المراقب والموجّه للأحداث فيقول:"تعاسة التعاسة.. الزوجة لم تفتح له حضنها. والبيت طرده وأغلق بابه "[12] ثمّ يذهب حنظلة إلى مكان عمله السابق في بنك الازدهار والعمارة، ويطلب إعادته للعمل مقدّماً تنازلات مهينة، ولكنه لا يتلقى من ربّ عمله إلّا الإهانة والطرد، وعندما يسأله حنظلة:"أتسلبني عملي، وترميني إلى الشارع؟"[13] يستدعي المدير، بالفعل، من يرميه إلى الشارع مع القمامة فيردّ عليه حنظلة:"لا تغضب يا سيدي المدير.. لا تغضب سأخرج في الحال"[14] أيضاً سيلتقي حنظلة مع ربّ عمله هذا كأحد رجالها الجالسين وراء الطاولة العالية.

وبعد محاورة بين حرفوش وحنظلة، بكى فيها حنظلة عندما جابهه حرفوش بحقائق ما يجري له، ثمّ أخذه إلى طبيب مختص بالبسيكو إعلامي، حيث يقول الطبيب عن هذا الاختصاص: "إن التقدم الذي أحرزه **الطب البسيكوإعلامي** جعله واحداً من أهمّ أسس الاستقرار في المجتمعات المعاصرة"، ثمّ "وتدعيم الأنظمة المعاصرة" [15] وفي العيادة أجري له العلاج اللازم الذي أنساه مآسيه، و نجد الطبيب يعلن أنّ: "الدماغ بعد أن غسل وشحم يعمل بدقة محرك جديد" ويقول حرفوش، وأيضاً:"كلّ الأعضاء المعطوبة جددت، وصديقنا حنظلة سيجد السبيل إلى الهناء"[16] ثم نجد حنظلة تأخذه نوبات من ضحك هستيري فيتساءل حرفوش عن مدى استمراره في غفلته، وعندما يسمعه يقول أنّه يضحك على نفسه يستنتج حرفوش: أنه بدأ يفكر.

عند الشيخ الدرويش يؤكد حنظلة أنّه لا يسعى إلّا أن تنقضي حياته مستوراً وآمناً، ولكن كلّ الأمور تجري له معكوسة، فيدفعه الشيخ باتجاه الرضا والتسليم بما قسم الله له وبالابتعاد عن السؤال حتّى لا ينقاد إلى الضلال، وأن يحمد الله لجعله معتدى عليه وليس معتدياً، ويكتب له حرزاً لتخليصه من حكّة الشيطان. وبعد خروجهما من زاوية الشيخ ينزع حنظلة الحرز من صدره، ويلقيه على الأرض ويعلن: "لست نائماً، وما يحدث لي ليس بالحلم، فجأة صحوت من نوم عميق" [17] ويبدو أن حرفوش لاحظ أن حنظلة بدأ يفهم وبدأ يجد درب المعرفة.

ثمّ لدى المثقف الحكيم فلم يجد حنظلة سوى ثرثرة غير مفهومة ولم يستشعر حلّاً، وأيضاً في جمعية التآخي التي سمع فيها خطاباً للمديرة عن ضرورة التسامح الاجتماعي، ثم حملته نشرات أرهقته فرماها وداسها برجليه.

وفي جريدة الوطن، ممثل الإعلام في السلطة، لم يجد إلّا سوء الفهم لقضيته واعتباره أبلهاً اختلف مع زوجته بسبب تسكعه فطردته من البيت.

ثم يعلن حنظلة أنّ كلّ من طلب منهم العون كذبوا واحتالوا عليه.. وأنّهم مسخرة المساخر، وقال بغضب وسخط:"واحد يدغدغني، والثاني يروّعني بالمعاصي، والثالث يدوّخني بالأحاجي، والرابع ينصحني بالتسامح الاجتماعي، والخامس يحوّل مصائبي إلى قصّة هزلية سخيفة."[18]

ثم يقول: إن هؤلاء لا يريدون له أن يفهم، ويتساءل من جديد، لماذا يحدث له ما يحدث؟. ثم يكتشف أثناء مقابلته الحكومة أنّ هؤلاء هم مكوّناتها، هم ذاتهم الذين قابلهم لشرح قضيته أمامهم، كلّ حدة، في مكاتبهم، ومعهم سكرتيرة لعوب يتصف تعاملها مع رجال الحكومة بالمجون، ويعرف أنّها زوجته. مأساته كان قد شرحها أمام ذات الأشخاص الذين يجلسون وراء طاولة عالية، يتهامسون، ثم يردّون عليه بأجوبة كان قد سمعها منهم في مواقعهم التي يشغلونها وسط بيئتهم المجتمعية، والتي تناولوا فيها سياسة نظامهم المتبعة على الرعية والتي تضمن بقاءهم في السلطة وتسيّدهم على العباد المهمّشين .طلبوا منه أن يوجز لأن وقت الحكومة ثمين، وأن لا يتباه، فالحكومة لا تحبّ المتباهين، ثمّ حددوا قواعد لعبتهم في الحكم: "قاعدتنا الأولية: الوقاية خير من العلاج، وعصا الشرطي هي المجدية، والاعتقال على الشبهة، وشبهة الشبهة" والمطلوب:"أن تسحق الشغب وهو ما يزال في الخواطر والنوايا"[19]

إذ أنّ القضاء على نوايا الشغب يمنع ظهور الشغب" وبالتالي:

" حبس احترازي خير من مواجهة فتنة" [20] وما يخصّ قضية حنظلة مع زوجته ردّوا عليه:"يسرّنا أن تقف الزوجات الفاضلات معنا، وأن تُعامِل المرأةَ، بحزم، زوجاً متسكعاً مشبوهاً" و أيضاً:"... إنّها التي تساهم في البناء الاقتصادي "[21] و"... تشجع التناسل، وتجدد شباب المجتمع "[22]

ولمّا سألوا حنظلة إن كان قد توضح له الأمر ردّ عليهم:"وضوح إيضاح الإيضاحات " [23] بالفعل لقد توضح الأمر لحنظلة الذي نفض عن شخصيته الغفلة والتردّد والضعف، واستبدلها بشخصية تعرف درب الشكّ والسؤال والمعرفة، ليدرك أخيراً أنّ من يحكم في سلطة النظام عصابة من الفاسدين والماجنين والمجرمين والمتدينين الكاذبين، وأنهم يستمرون بحكمهم نتيجة خلل موجود في نفوس شعب مغفّل مضلّل مقهور جاهل يتقوقع في بنية مجتمعية متخلفة تأبى أن تتحرر من أسر مفاهيم الماضي، ولكن أفراد الحكومة هؤلاء يكملون في كذبهم حتى النهاية، وربما إلى ما بعد

النهاية، وبوقاحة يطلبون من حنظلة المزيد من التضحية عندما نسمع أحدهم يقول:"قوة أيّ بلد لا تقاس بثروته فقط، وإنما بقدرة أبنائه على التضحية، و:"إذا أنت وهو لم يضح فكيف نعمّر هذه البلاد ونبنيها"، و:"إذا أنت لم تحترق وهو لم يحترق فمن أين تأتي النار"[24] وعندما يحتجّ حنظلة عليهم، لأن التضحية مطلوبة منه ومن أمثاله فقط من أبناء الشعب، أمّا الحكومة فوظيفتها الكذب وسرقة الناس وقمعهم فإنّهم يبدؤون بالوعيد الصريح حيث يخاطب أحدهم حنظلة:"المطلوب هو الرضى بالأمر الواقع، لأنّ السلطة لا تحبّ إلّا الراضين"، و يتبعه الآخرون:"من يفقد الرضى يضيعنا" و يكمل آخر من أعضاء الحكومة:"من يضيعنا تجده الشرطة" و:" من تجده الشرطة تنطبق عليه الزنزانة" [25] أمّا حنظلة الذي كان مغفلاً تبادل مع قرينه حرفوش حواراً أقرب ما يكون لمونولوج يتحدّان من خلاله وفق معرفتهم أن: " أفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين، ويعملون كي نبقى في الجهل والظلام " [26] إنهم يضطهدون، ويسرقون، ويستغلون المغفلين، وأنّ آلامَهما، كما عبّرا، لا ينهيها إلّا إذا أوقفا الخدعة، وبدأا تغيّير ما بأنفسهما.

وأخيراً، يبدو أنّه آخراً في واقع الأحوال، قرّر أفراد الحكومة إعلان سياسة السلطة الحكيمة: "في هذه المرحلة المثقلة بالمسؤوليات والأخطار يجب أن نكون كالبنيان المرصوص، تشدّنا أواصر القيم والمبادئ الثابتة. لن نسمح لمشاغب أو موتور أن يمسّ وحدة المجتمع ومؤسساته. إنّ المسيرة المقدّسة، مسيرة الشعب تحت الحكومة، والحكومة فوق الشعب ستمضي حاشدة مدوّية حتّى تتحقق كلّ الأماني العظيمة "[27] ومن جهة أخرى قرّر حنظلة – حرفوش بدء الرحلة من جديد.

إن ونوس إنما " يعود تركيزه على طبيعة السلطة وآلياتها إلى مفهومه للمسرح الذي يقوم بمهمة الشحن والتسييس"[28] إنّها القطيعة بين سلطة تمثّل الاستبداد وتخلّف الماضي، وهيمنة الجهل، وفساد الحاضر، مع شعبٍ أدرك حقيقة مأساته مع أشباه بشر يحكمون وطناً أوصلوه إلى حافة الانهيار.

فعل الدين والتدين في أحداث المسرحية ولدى شخوصها:

لدى الشخصية الرئيسية "حنظلة" ميل إيماني فطريّ، فمنذ بداية المسرحية نجده يستخدم ألفاظ الله جل جلاله مثل:"امشِ الحيط الحيط وقل يارب السترة"[1] ويعتبر إبراز هذا الميل عند حنظلة **إشارة** إلى سمات البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها والتي تميل للاستكانة والقبول بما قضى الله وقدّر لأبناء هذه البيئة أن تحياه في بؤسها، من دون وجود للطموح لدى ابنائها بهدف الثورة على جلّاديها ومستغليها الذي يقتضي إعمال العقل مع الاستعانة بالله تعالى.. وقد تجلّى الموقف من **التدين الزائف** في المسرحية بشكل واضح مع مشهد: "عند الدرويش" حيث وصفه

حرفوش بالشيخ الذي تقام في زاويته الأذكار، شديد الورع والتقوى، نافذ النظرة"[2] والذي جعل حنظلة يعتبره الملجأ الآمن له عندما سمع عنه هذه الصفات، وأخذ يدعو الله تعالى ببلاهة مثل:"اللهم نفعّنا من بركته"[3] إلى أن يدخل حرفوش ومعه حنظلة إلى زاوية الشيخ الذي يقبع في زاويته وسط "جوّ ديني يعبق بالبخور.. وأغاني المولوية، وبيده مسبحة ضخمة جداً تتدحرج حبّاتها على الأرض، كاسة ماء، دواة وريشة، لوحات شعبية عن الخرافات الدينية"[4] وعندما يقف حنظله أمامه منحنياً بخشوع، يذكر للشيخ أنه عبد مؤمن، ثمّ يشرح له مشاكله عسى أن يعينه علم الشيخ الواسع في اكتشاف سبب ما يحدث له من تعثر وأذى، وكان الشيخ يجيب على كل مشكلة وفق تصوّره الديني الغيبي المضلِّل حيث لاعلاقة لهذا التصور بمعاناة حنظلة الواقعية ومنها قول الشيخ لحنظلة:" لا تلحف في السؤال، لأن السؤال يقود إلى الضلال. ولا تفقد الرضى لأن الرضى أثمن نعم المولى"[5]

ثم يطلب الشيخ من حنظلة: " أن يحمد الله لأنه المطرود لا الطارد، والمظلوم لا الظالم، والمسروق لا السارق "[6] وذلك استعداداً لدخول الجنّة الموعودة، لأنها ستفتح أبوابها للمظلومين دون الظالمين. أراد ونوس ان يظهر جهل وتخلف الشيخ عندما سقطت منه كلمة " أفرمها.." تلقائياً عندما سأله حرفوش:" أترضى إذا طردتك امرأتك، لأن هناك رجلاً يتدفأ تحت لحافها؟"[7]

كما يشير إلى هيمنة الثقافة الغيبية على مجتمع مقموع ممثلاً بحنظلة وحرفوش، ولجوئهما إلى هذا الركن لدى زاوية الشيخ المضلّلة عندما يسعيان لحلّ مشاكل مرهقة بدلاً من البحث عن حلول واقعية عقلانية لمعاناتهما. ثم بعد أن يخبر حنظلةُ الشيخَ، أن حياته السابقة كانت منغمرة بالرضى، ولكن بعد ماجرى له ما جرى فإنّه يشعر بالرعب حيث قال:"لكن أشعر أني أصحو بعد رقاد طويل في قفر، وكل ماحولي مرعب وغريب"[8] ويطلب من الشيخ إعانته فيجيبه الشيخ:"لا حلّ إلّا أن تُطهر نفسك من الشك والوسواس، داؤك في نفسك لا في بدنك " و" دع الأسئلة، فهي منفذ الشيطان إلى القلب، وفتّش عن الرضى"[9] ولكن حنظلة تهاجمه الأسئلة كالحكّة فيقول له الشيخ:" تلك هي حكّة الشيطان"[10] ويكتب الحرز من دون غشّ ولا تقليد، كما ادعى، متمتماً بداية: بسم الله الرحمن الرحيم ..واضحٌ في المسرحية أن دور الشيخ هو تغييب وعيّ الناس وراء خزعبلاته، هذا الوعي الذي لو امتلكوه لأمكنهم تجاوز أحوالهم البائسة التي يتعايشون معها بظلّ سلطة نظام الحكم. إنّ تضليل الناس وتغييب وعيهم عن فهم وتفسير وتغيير الواقع يضمنان استمرار هيمنة السلطة القهرية التي تضمّ في مؤسساتها الشيخ الدرويش كأحد أركانها والذين اكتشفهم حنظلة في لقائه مع الحكومة.

ثم نسمع المثقف الحكيم الذي يخاطب حنظلة دون أن يفهم من كلامه شيئاً، وقد استخدم هذا المثقف كلاماً مستمدّاً من مرجعيات دينية لاعلاقة لها بالواقع وهي اقتباس من الكتاب المقدس، العهد القديم، حين قال:" كل الأفعال والكلمات باطل الأباطيل، الكل باطل. والكلّ قبض ريح. دور يمضي ودور يجئ بشمس تشرق ثمّ تغيب، كلّ الأنهار تجري إلى البحر، والبحر ليس بملآن، ما كان فهو يكون، والذي صنع فهو الذي يصنع" [11] إنّ استخدام ونوس لاقتباسات من الكتاب المقدّس والقرآن الكريم أظهره وكأنّه يريد توحيد آثار العقلية الدينية المتخلفة على البشر، وذلك عند التقاء الأديان على تفسير وإساءة الجاهلين في قراءة نصوص الكتب المقدسة، وعدم قدرتهم على فهم ووضع واستنباط حلول لمشاكل يعاني الناس منها بناء على مرجعيات متخلفة.

وأخيراً يصل حنظلة برفقة حرفوش إلى مقرّ الحكومة ليسمع ذات الخطب والنصائح المتضمنة ترهيباً وتضليلاً من أعضائها القابعين وراء طاولة عالية، والتي كان قد سمعها أثناء بحثه عن إجابات على سؤاله لماذا يحصل معه كلّ هذه الآلام، عند زوجته، ولدى ربّ العمل، وفي عيادة الطبيب، وأمام المثقف الحكيم، وفي مكتب مسؤولة جمعية التآخي، وعند ذاك الشيخ الدرويش الذي توضّح لحنظلة أنّه أحد أعضاء الحكومة، حيث أجابه من موقع الشريك المتديّن في السلطة السياسية على أسئلته بشواهد من القرآن الكريم:" هنّ لبوس لكم. وأنتم لبوس لهنّ" [12] كردّ على إهانة الزوجة وطردها له. ثمّ يكرر العبارات التي ألقاها عليه في زاويته مع استبدال كلمة "الله" بكلمة الحكومة والمستعاض عنها غالباً بضمير الجماعة " نا" ومنها:"لا تفقد الرضى فإننا لا نحبّ إلّا الراضين" و" من يفقد الرضى، يضيعنا"[13] وواضح أن (نا) هنا تعود إلى الحكومة.

وأخيراً تأكد حنظلة من شخصيات أفراد العصابة – الحكومة وعرف أنّهم السبب في بقائه مغفّلاً. وهاهو يردّ على حرفوش عندما سأله " هل فهمت؟"

" أنا أدور حول نفسي .. وهم أنفسهم متفقون كأفراد العصابة الواحدة يسخرون من المساكين أمثالي. ويعملون كي نبقى في الجهل والظلام " ثمّ قال له أيضاً: " كانت حياتي خدعة، ويجب أن تتوقف هذه الخدعة "[14] ويغيّر حنظلة مبدأه الذي أعلنه في بداية المسرحية الذي يعبّر عن ضعف وسلبية وغفلة إلى مبدأ نقيض هو المعرفة التي تقود إلى تغيير في الذات أولاً وليعلن عن مبادئه الجديدة:" قولة امش الحيط الحيط وقل يا رب السترة لا تقود إلى السترة"[15] حنظلة الذي يمثل نموذج المواطن المقموع الذي تسيطر عليه مفاهيم دينية غيبية، والذي يشبه الأكثرية الساحقة من أبناء شعبنا الذين يُراد لهم أن يبقوا في الظلام والظلامية، ليستمر في عجزه عن التغيير.

لم يبق لحنظلة هذا إلّا أن يعلن القطيعة مع منظومة قيم همجية وأفكار غيبية هدّامة وسلوك داعر لرجال الحكومة اكتشفه في رحلته مع الشقاء ابتداء من اعتقاله وصولاً إلى مقرّ الحكومة وإعلان تفهمه لظلمها وإعلانه البدء برحلة الشكّ والمعرفة.

موقف البيئة الاجتماعية من المرأة وموقع المرأة في السلطة السياسية كما قدمته مسرحية رحلة حنظلة من الغفلة إلى المعرفة:

في هذه المسرحية نجد ونوس يقتصد من **دور** النساء كثيراً قياساً على الدور الذي تجلّى لهن في **حفلة سمر**، ويختصر حضورهن **بشخصيات** نسائية قليلة غير فاعلات في مسار الأحداث التي تشير لتكوّن حالة زيف وتغوّل للسلطة و لواقع مجتمعيّ مزر، كما أنّ حضورهن ارتبط غالباً بتبعيتهن لرجال يمثلون وعي السلطة وسلوكها. وأهمّ شخصية نسائية هي زوجة حنظلة ثمّ الممرضة اللتين لا يسميهما باسميهما، مثلما لا يسمّي أيّاً من أعضاء الحكومة أو أشباههم الذين يساهمون بالأذى لحنظلة، كما يذكر مديرة جمعية التآخي وأم حرفوش من دون أن يذكر اسميهما أيضاً.

وقد ذكر المرأة أول مرة على لسان الزوج حنظلة الذي خرج من المعتقل لتوّه بعد أن عانى من إهانات السلطة وظلمها من دون أن يكون قد اقترف ذنباً، وذلك حين قال للشرطي أنه لا يغادر دفء بيته وزوجته أبداً، ثم وهو يخاطب حرفوش:

"لقد انتزعوني، من دون حياء، من دفء بيتي وزوجتي"[1] فكال الشرطي لحنظله الضرب والإهانات على الرغم أنّه أخبرهم:

أن لا همّ له ولزوجته إلّا قراءة الأبراج، وقد تركها تعدّ القهوة في البيت وغادر هو ليشتري مجلة النجوم، وأجابه الشرطي الذي لا يمكنه تصوّر المرأة إلّا أنها وضيعة أثناء اعتقاله:

"...في السجن يمكنك أن تفكّر بفأرتك العاهرة كما يحلو لك.."[2]

بعد خروجه من السجن قذفوا به إلى العراء، وقد أبدى حاجته لامرأته وإلى دفئها حيث يقول:

"المكان الوحيد الذي بقي لي هو حضن زوجتي الحبيبة."[3] ثمّ يتوجّه إلى بيته ليلاقي ما لم يكن له أن توقعه، حيث قامت زوجته استبداله بآخر، وطردته من البيت.

في موضوع ذكر المرأة في سياق المسرحية يسرد حرفوش قصة أمّه التي كانت تختلف مع أبيه وتتعارك معه لاختلاف مبدأيهما في الحياة، فوالده يدافع عن مبدأ: "ابعد عن الشرّ وغنّ له " وقد خسر عمله نتيجة مبدئه وسلبيته اتجاه ما يجري حوله، وبذلك فهو شبيه حنظلة. وأمّه التي تدافع

عن مبدأ: "اللي من إيدو الله يزيده"[4] وقد تعلّم حرفوش منها كيف يمكن للمرء أن ينحو على درب اليقظة والمعرفة التي يتحلى بها محاولاً تعليم حنظلة للانتقال إلى هذا الدرب. والملاحظ أنّ أمّ حرفوش لا علاقة لها بأحداث المسرحية، إنما ذكرت فقط ضمن سياق **سردية مستقلة**، لتعلّم ابنها حرفوش وعيّ واقعه ومحاولة تجاوزه من خلال معرفتها كامرأة لها نزوع باتجاه الفعالية الإيجابية عكس زوجها المستكين كحنظلة، ويلاحظ أن هذه **السردية** التي استخدمها ونوس:

"معنية بتصادم الآراء والأفكار تجاه الموقف بين الأم والأب، أكثر من عنايتها بتصادم الأحاسيس والمشاعر"[5]

إن حرفوش – الأنثى هو نداء الحرية والكرامة القابع في أعماق حنظلة – الذكورة المهدورة بسلبية صاحبها، حرفوش الذي استجاب للدرس الذي لقنته إياه أمه، ويحاول أن يكسبه لحنظلة حتى أضحى قرينه الداخلي الملازم له في كلّ أحداث المسرحية. لكن ونوس وجّه أحداث مسرحيته هذه وجهة أخرى غير الانتصار لروح الأنوثة المتجسدة لدى أم حرفوش، فقدّم زوجة حنظلة خائنة لزوجها الذي تغيَّب عن بيته، كما قدمها امرأة لعوباً مع رجال الحكومة، ومنحها مساحة رئيسية في أحداث مسرحيته.

لاشكّ أنّ ونوس أراد أن يصل مع المتلقي، من خلال معالجته لشخصية زوجة حنظلة، لحقيقة المرأة التي تمتلك رغبات أنثوية وتحتاج على الدوام لرجل فاعل يلبّي رغباتها، فإذا أبدى رجلها عجزاً في قدرته على الفعل ضمن محيطه الاجتماعي وإثبات رجولته التي لا تتكامل إلّا مع الاستجابة لأنوثتها التوّاقة للحرية التي تبدأ بالخروج من نفق الغفلة والسلبية باتجاه مصير الفرد وسط الجماعة التي يحيا معها والتي ينتمي إليها عبر ولوجه في رحاب الشكّ والسؤال والمعرفة، فإنّه لا يستحق دفء حضنها وأنوثتها التي تفيض في فضاء حياتهما وتنعكس خيراً وفيراً وحباً سامياً عليهما و في وسطهما الاجتماعي. ولذلك نجد حنظلة يصل إلى غرفته فيجد زوجته قد استبدلته بعشيق وتحوّلت عنه، ولمّا تعامى عن وجود هذا العشيق، وبدى غافلاً عن حقوقه، وأظهر ضعفاً وغباءً اتجاه موقف يستدعي رجولة، فقد طردته من بيتها، وهاهي تصرخ بوجهه:"لا.. أقولها لك بالصريح والفصيح، لا أعرفك ولا تعرفني، والأستر أن تنقلع فوراً من بيتي"[6] وتتذرع بأنه لم يستطع أن يلبي احتياجاتها النفعية أو المادية المرتبطة بالمال والوقود والطعام، حيث تركها كما زعمت وذهب إلى المواخير والحانات التي تعرفها جيداً على الرغم من عدم زيارتها لها.

ولكن حنظلة لا يريد أن يعرف لماذا تحلّ به هذه المصائب وهاهو يقول:

"لا تريد أن تغفر لي، وترفض أن نعيش معاً كما في الماضي. يقيناً أنه سريري. وتلك مخدتي، لكنها تطردني. ماذا فعلت لها؟ ماذا فعلت لهم، لماذا يحدث لي ما يحدث؟"[7] أمّا حرفوش قرين حنظلة وصوته الداخلي الذي ينشد الشكّ والمعرفة يستمر في تذكير حنظلة بمصائبه وبغفلته، ولمّا برّر حنظلة فعل امرأته التي لم تكذب عليه ولم تفكّر بخيانته، وأنّها كما قال:"كانت وحيدة في السرير، لا تصحبها إلّا قدماها اللّتان تجمدتا من البرد وسقطتا على الفراش لعدم وجود نار في البيت فنفذ البرد إلى عظامها"[8] فيردّ عليه حرفوش: "إنّ القدمين لهما شاربان، وأنهما ترتديان قميصاً وكلسوناً، و" طبعاً أنت لم تشأ أن ترى فأنت لا تدّس أنفك فيما لا يعنيك "[9] تماماً كما يرى حرفوش أباه وفقاً لما تعلَّمه من أمه، ولذلك عندما بكى حنظلة قال له حرفوش: "اللي من إيدو أللّه يزيدو"، لأنّ من مثل حنظلة يُستبدل بآخر في العمل وآخر على فراش الزوجية، هكذا تعلّم حرفوش الدرس من أمّه الأنثى.

عند الطبيب قدّم ونوس شخصية نسائية أخرى هي الممرضة ليؤكد سلوك زوجة حنظلة، فهي تساهم في إيذاء حنظلة مع الطبيب، ولمّا طلب منها مساعدة حنظلة ليستلقي على المنصّة، اقترب أيضاً حرفوش ولكن الطبيب اضطر أن:"يباعد بين حرفوش والممرضة اللذين يهمّان بالعناق" [10] ثمّ يطلب الطبيب تشغيل الموسيقا: وعندما تتبعث الموسيقا يحاول حرفوش ان يراقصها، او يعاكسها"[11] وبعد: "أن يهوي بمطرقة على ركبة حنظلة تندفع ساقه في الهواء وتصيب الطبيب الذي يتكئ على الممرضة، يحضنها ويسقط وإيّاها على الأرض"[12] إنّ ما قدّمه ونّوس من أدوار للممرضة دلّت على أنّها تمثّل نموذجاً نسائياً آخراً هشّاً، ليس فاعلاً في أحداث المسرحية، بل مساهماً في السوء، ومساعداً في عيادة الطبيب التي سيتبين أنه أحد أركان الحكومة، وبذلك لم يكن نموذج الممرضة بأحسن حال من زوجة حنظلة، بل إن سلوكها حدّد شخصيتها ودلّ على استهتارها وميوعتها، ولم يترك لها أيّ فرصة لتلعب دوراً إيجابياً في بلورة رؤية للناس بغية خلاصهم.

في المشاهد التالية يؤكد حنظلة على أن زوجته:"بالت عليه"[13] وكلما ذكر مآسيه يذكر طردها له من بيته وعندما وصل إلى زاوية الشيخ الدرويش، لم يشر ونوس إلى أيّة حياة أنثوية لديه، وإنما يستدل على تفكيره المتخلف إزاء المرأة عندما ردّ على سؤال حرفوش عمّا يمكن أن يفعله فيما لو وجد امرأته مع رجل آخر فأجاب تلقائياً: "أفرمها، ..."[14] ثمّ إنّ حرفوش ذكر من جملة ما ذكره عن منافع الحرز الذي كتبه الشيخ: "أنّه يفيد المرأة المتعسرة الولادة، والبنت البائر"[15] وكأن ونوس أراد أن يشير إلى اهتمام مجتمعنا بهاتين الناحيتين لدى النساء من دون أن يلتفت الفاعلين في هذا المجتمع إلى معالجة قضية المرأة الجوهرية في الحرية والعمل والمساواة.

وأيضاً ذكرت المرأة في المسرحية عندما زار حنظلة جمعية التآخي الاجتماعي حيث استقبلته " سيّدة موّقرة"[16] ثمّ عاملته كبقية منظومة السلطة وأعضائها المكونين لها، إذ نجدها لم تتمكن من سماع مشاكله لضيق وقتها، وألقت عليه محاضرة، ثمّ حمّلته رزمة من النشرات فأرهقته.

ومن إشارات ونوس للمرأة، أنّ الصحفي في جريدة الوطن عندما روى حنظلة له قصته، لم يصله منها إلّا أن زوجته طردته بسبب تسكّعه، فطالب هذا الصحفي الزوجة "بخيار عمران عشّها الزوجي لا خرابه"[17] وقد تطابق موقفه هذا مع موقف رجال السلطة عندما لجأ إليهم حنظلة. لقد أسّس ونوس في مشهد اللقاء بين حنظلة وزوجته، وعرضه لشخصيتي الممرضة ومديرة الجمعية الاجتماعية ليأخذ الشخصية النسائية الرئيسية، وهي الزوجة في مسرحيته، لفريق السلطة المضلّلة والفاسدة، والتي تشكل عصابة حكم مكوّن من العسكر وشيوخ الدين والمنتفعين من مثقفين وصحفيين وأرباب عمل، ولتلعب المرأة دور سكرتيرتهم اللعوب، دون أن ننسى استخدامه لسردية حرفوش بالحديث عن خلاف أمّ وأبيه، خارج سياق النصّ الذي يعيد للمرأة قدرتها على أن تكون عين عقل الرجل الطامح ليعرف درب خلاصه، كما حصل لابنها حرفوش.

وهكذا وصل حنظلة أخيراً إلى الحكومة، وتفاجأ بوجود كلّ من أساء إليه قابعون خلف طاولة عالية ومعهم:"سكرتيرة هي الزوجة" و" السكرتيرة لعوب، يتصف تعاملها مع رجال الحكومة بالمجون "[18] وبعد أن روى قصته لهم، وبرروا له أن المصلحة الوطنية تقتضي منه التضحية ولم يسعفوه بأي ردّ منطقي، بدأ الحديث عن زوجته التي قاسمها السرير نصف عمره ولكنها طردته، فيردّ عليه أحد أعضاء الحكومة مستخدماً آية من القرآن الكريم:"هن لبوس لكم، وأنتم لبوس لهن"[19] ثم عبّروا عن مسرّتهم منها عندما: "تعامل المرأة بالحزم زوجاً يفضّل التسكع المشبوه على البقاء في كنف أسرته" و" أنها المرأة التي تسهم في البناء الاقتصادي..."[20]

كما قالت الحكومة إنّ المرأة التي تغلق الباب بوجه زوجها المتسكع: "تشجّع التناسل، وتجدّد شباب المجتمع، وتقوّي أواصر الأسرة، وتحفظها نقية"[21] وهكذا نصل لرأي الحكومة في المرأة وقضيتها بآراء ترتبط بمنظومة قيم وأفكار المجتمع المتخلف والمقهور المعبَّر عنها على ألسنة القابعين وراء طاولة الحكومة العالية.

آخر دور كان للقرينين حرفوش وحنظلة معاً كشخص وظلّه، من دون نساء، وهما يعلنان على بدء رحلة جديدة، لفشل وموت التجربة السابقة، وكأن ونوس أراد أن يوصل رسالة تتعلق بقدرة السلطة إلى إلغاء دور الأنثى المؤسس لعملية التغيير المنشود، ولم يترك إلّا حرفوش الذي يرتبط موقفه بأمّه ودرسها الذي لقنته إياه أثناء صراعها مع أبيه المستكين.

تُرى هل سيكون صوت أمّ حرفوش الداعي للتجاوز" اللي من إيدو الله يزيدو" والذي يقبع في أعماق ذات حرفوش، خالقاً لفعل سياسي يتجاوز بؤس الراهن؟ أم أن ونوس نفض يديه من المرأة الملتصقة بسلطة القهر؟

إن ونوس صنّف المرأة في مسرحيته هذه ضمن إطار فعاليات السلطة السياسية، وضمن المنظومة المجتمعية المتخلفة التي لا تحتوي إلّا على التخلف والقهر والجهل والفساد، ولم يمنحها قدرة التأثير على مجتمع متخلف يحتاج إلى الثورة والمعرفة، ولا إمكانية اسشرافها للمستقبل، سوى من موقف أم حرفوش في صراعها مع زوجها، في سردية وردت خارج سياق النص، وقد تعلم منها حرفوش كيف يمكنه أن يعرف.

إنّها إشارة واضحة لإمكانية المرأة في لعب دورٍ فاعل، فيما لو تمكّن رجلها من تفهّم وتتبع توقها للمعرفة والحرية، حتّى تكون له عين العقل، ليعرف كيف يتلمّس فيوض أنوثتها على الوجود، هذه الأنوثة التي لابدّ من تفعيلها حتّى تمكّن الأمّة من الولوج في عالم التحضّر الإنساني.

obeikandl.com